على هامش النثر :

« بين الفلسفة والأدب »

تأليف الأستاذ علي أدهم

للأستاذ سيد قطب

عنوان يلخص موضوعات الكتاب ، ويلخص الكاتب في الوقت ذاته — وهي مصادفة فذة ! — فالكتاب بين اتجاهين في كل موضوعاته : إما فلسفة الأدب ، وإما أدب الفلسفة . والكاتب كذلك في هذا الكتاب وفي سواه من كتبه وبحوثه يتجه إلى هذين الاتجاهين ؛ فهما قطبا تفكيره وإحساسه بالحياة . سواء كتب في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ وهي موضوعاته المختارة

أخرج قبل هذا الكتاب : محاورات رينان (مترجمة) ، وصقر قريش ، والمنصور بن أبي عامر ، والخطايا السبع (مترجمة) . والمذاهب السياسية المعاصرة ، ونظرات في الحياة والمجتمع . كما نشر عشرات الفصول في شتى المجلات في مثل هذه الموضوعات .

وحينما نظرت في عمل من أعماله لاحظت أنه ينظر للأدب بعين الفيلسوف ، ويتذوق الفلسفة بحس الأديب ، ويتناول الشخصيات والحوادث بشعور مزيج من الفلسفة والأدب على السواء

والأستاذ أدهم هنا في كتابه الجديد يجول في ميدانه الأصيل ، ويستخدم أفضل ملكاته ، فينتج أفضل نتاجه . فالكتاب مجموعة فصول متفرقة يلخصها العنوان المتقدم ، وتحتوي على الموضوعات التالية بعد المقدمة : « ملتقى الشعر والفلسفة ، موازنة بين أبي العلاء وشوبنهاور ، أبو العلاء وفلسفة التاريخ ، تولستوي وفلسفة التاريخ ، شوبنهاور وفلسفة التاريخ ، فكرة التقدم ، فلسفة تاريخ الفلسفة ، بين الفن والفلسفة ، البطل والإنسان الأعلى . السياسة والأخلاق ، التمرد على العقل ، التاريخ والأبطال »

فهي من حيث الموضوع تلخص اتجاهاته جميعاً على حسب ما أسلفنا . وهي من حيث الشكل فصول مستقلة . وفي هذا النحو من الكتابة يتفوق الأستاذ على أدهم . وهو هنا خير منه في أي كتاب ذي موضوع واحد وفصول مترابطة داخل هذا الموضوع

ولست أدري إن كان هذا القول يسره أو يغضبه . ولكنه هو الواقع — في تقديري — فهو حين يكتب بحثاً في مقال تتجلى أفضل خصائصه من الدقة والعمق والوضوح ، والإحاطة بأطراف موضوعه ، وتجليتها للقارئ ، بحيث تعطيه الكفاية التي يستريح إليها في حيز محدود ؛ وبحيث يشعر أن في هذا الفصل غناء ، ما لم يكن من هواة المراجع المطولة في الموضوع الذي يطالعه

فهو كاتب مقالة بجيد ، بل هو في الصف الأول عندنا من كتاب المقالة .

ويحسن أن أصوب هنا خطأ أو بدعة يروجها من يفهمون الأدب كما يفهمه عشاق الأزياء و « الموديلات » !

لدينا طائفة من هؤلاء يفهمون أن لفنون الأدب مواسم ومواعيد ، ولكل فن أو لكل « موديل » باباً معيناً لا يتعداه

فأدب المقالة قد انتهى في عرف هؤلاء المتحذلقة ، كما أن الأوان هو أوان القصة ، وكل ما ليس بقصة فهو فصل متخلف في الأدب .

وفي وقت ما كان المطلوب من الأدباء أن يكتبوا تراجم أو يوميات . وكان المطلوب من الشعراء أن يكتبوا ملاحم أو مسرحيات ! كما يطلب من الأدباء اليوم أن يكتبوا قصة أو أقصوصة ، وإلا فهم متخلفون !

كل هذه الحذلقات منشؤها ضيق الأفق وضعف التذوق والنظرة إلى الأدب كالنظرة إلى الأزياء كما أسلفت ، لكل زي موعد وإبان !

والحقيقة أن لكل لون من ألوان الأدب موسمه الخاص كل آن ، والعبرة هي بطريقة التناول لا بشكله ، وكل ميدان لما خلق له ، وكل أدب أصيل في ذاته فهو أصيل في شكله تعدد الأشكال وتباعد الأعصار ، والمفاضلة بين فنون الأدب أساس الشكل الذي تؤدى به مفاضلة زائفة ، فالفنون كلها في هذه الناحية سواء .

وإذا لم يكن بد من المفاضلة ، فإنني أحس أن كثيراً من « المقالة » قد تكون أشقها جميعاً . إذا أردنا أن نحصل على مقالة جيدة ، فلا بد في المقالة من فكرة وموضوع ، ولا بد من تنسيق داخلي في تسلسل الموضوع ، لا يقل عن التنسيق الخارجي للفصول المتعددة في الكتاب أو القصة أو المسرحية أو في الترجمة وأقل فراغ في المقالة أو تقصير يظهر للقارئ بارزاً ، في حين تختفي هذه المواضع في القصة ، لأن الحكاية أو الحبكة تغطي عليها

ولا أحب أن أرتكب الغلطة ذاتها التي يقع فيها من يفاضلون

بين فنون الأدب على أساس الشكل الذى تؤدى فيه . ولكنى أريد فقط أن أقول : إن أدب المقالة ليس أسهل ولا أقل مؤنة من سائر الآداب .

ونعود إلى كتاب الأستاذ أدهم ، فأقرر أننى خرجت من كل فصل من فصوله بفكرة واضحة كاملة عن موضوعه — بمقدار ما تستطيع « مقالة » أن تحيط بحدود الموضوع — وكل فصل من هذه الفصول لا يقف عند إعطاء فكرة عن الموضوع الذى يعالجه ، بل هو يصلح مرجعاً قريباً للباحث فى موضوعه ، وعلى الأقل مفتاحاً لراجعه ودليلا إلى هذه المراجع مأمون الإشارة ، موثوقاً بصدقه فى الهداية إلى الطريق !

ويشعر القارئ — مع مجهولة الأداء ودقته ووضوحه — بأن هناك جهداً ضخما قد بذل فى التحضير ، وإخلاصاً للبحث قد توافر فى المراجعة ، وتثبتاً وتدقيقاً أمام الجزئيات التى يعرض لها ... وهذه الخصائص هى أقوى ما تطلبه من كاتب يقدم لك قطافه من شتى حدائق الفكر فى الشرق والغرب فى حيز صغير محدود

كذلك يشعر القارئ فى نهاية قراءته للكتاب أنه خير منه وأوسع نظرة إلى الأدب والأشخاص والحياة قبل أن يقرأه — وهذه ميزة ليست بالقليلة ، وليست كذلك بالشائعة فى الكثير مما تخرجه المطبعة العربية من سيل الكتب فى السنوات الأخيرة — بل لا أبالغ إذا قلت : إنها لا تتوافر إلا لعدد محدود من الكتب الكثيرة التى تصدر فى كل عام .

ومع أن طبيعة الموضوعات التى تناولها الأستاذ على أدهم تجعل مجال الخلق الفنى فيها محدوداً ، إلا أنها استعاضت عن هذه السمة سمات أخرى من الدقة والعمق والوضوح تجعلها فى النهاية عملا فنياً فى هذا الحيز المعلوم ، وبخاصة ذلك الفصل القيم الذى كتبه عن أبى العلاء ، فهو من أفضل ما قرأت عن المعرى فى القديم والحديث . وقد جاء فى مقدمة المؤلف قوله :

« عمل المفكرين والفلاسفة هو إعداد الجو الذى يموج بمختلف الآراء والمذاهب والنظريات . ومن طبيعة القوة الخالقة أنها لا تكشف الأفكار ولا تبتكر النظريات ، ولا توجد المذاهب الفكرية ، لأنها موكلة بالبناء والتركيب والإنشاء ، وليس من أربها الكشف والتحليل والتوضيح والتفسير . فهى تتناول الأفكار والمذاهب والنظريات ، وتنفخ فيها روح الحياة ، وتضفى عليها الحلل السابغة والألوان الزاهية ، ولكى يزدهر الأدب ويسمو الفن ، لا بد من وجود هذا الجو الملىء بالأفكار ، الحافل بالمذاهب والنظريات . ومن ثم كانت أزمنة الخلق الأدبى العظيم فى تواريخ الآداب قليلة نادرة ؛ وبلوغ هذه الذروة فى الأدب والفن يستلزم تلاقى قوتين : قوة العبقرية الخالقة ، وقوة الزمن . والشاعر أو الكاتب أو الفنان يسمو فنه ويتسع أفقه إذا عرف أشياء قيمة عن الحياة والدنيا قبل أن يتناولها فى فنه ؛ والتفكير الفلسفى يجدى على الأدب ويزيد ثروة الخيال ، ويعين على إطلاق العقول من قيود الأهواء والنعرات ، وتصفيتها من شوائب التعصب والضيق ؛ وتأمل عظمة الكون وجلاله ، يكسب الفكر عظمة وجلالا . وقد تخفق الفلسفة فى معالجة مشكلات الحياة ومسائل الوجود ، وربما كانت تلك المشكلات والمسائل من وراء طاقة عقولنا المحدودة ؛ ولكنى أعتقد أنها توفق على الدوام فى شىء واحد ، وهو أنها ترينا أن الكون أرحب مما نقدر ، وأعظم مما نرى » .

وهذه كلمات جيدة ، وهى تعطى القارئ فكرة عن طريقة المؤلف فى تناول موضوعاته ؛ وفكرة عن نظرته للحياة والأدب والفلسفة أيضاً ، وهى جديرة بأن تفتح أعين الأدباء الخالقين من الشعراء والقصاصين وغيرهم على أن الموهبة وحدها لا تكفى ، فلا بد من التزود والاطلاع ، لا فى موضوع فنهم وحده ، ولكن فى محيط أوسع ، يشمل الفلسفة فيما يشمل .

ومع أننى أنا شخصياً ممن يدعون إلى تخليص الفن ، والشعر خاصة ، من ربقة الذهنيات ؛ إلا أن القصد والاعتدال والدقة فى بيان الأستاذ أدهم لمنطقة الفلسفة ومنطقة الفن فى مقدمته وفى الفصول التى تلتها ، تجعلنى أتفق معه فى وجوب تنوع الدراسات والثقافات لمن يريد أن ينشئ فناً ذا قيمة إنسانية .

وكل ما أبديه من تحفظات هو ألا تظهر الذهنية ، وقد أغالى فأقول ، بل الفكرية ، فى العمل الفنى ، وبخاصة الشعر الذى أحب له أن ينطلق مرفرفاً متخففاً من أثقال الذهن المقيد ، والفكر الواعى على قدر الإمكان .

وفى النهاية أذكر أن كتاب الأستاذ أدهم قد حقق فى اللغة العربية قسطه المناسب من تحقيق هذا الغرض الذى يريده مؤلفه . وهو « تزويد الثقافة المصرية العربية الشرقية بطائفة من الأفكار والآراء والنظريات التى تمهد السبيل للخلق الأدبى والفنى العظيمين »

وقد حقق هذا الغرض بأكثر مما حققتها كتب كاملة ظهرت فى بعض الموضوعات التى تناولها أو فى موضوعات قريبة منها . وذلك بلا شك حسب فصول مختصرة فى كتاب

سيد قطب